ديزيره سقّال

رؤيا

لتاريخ أبي عبدالله

شعر

الدار الصحفية العربية للأبحاث والنشر والتوزيع

ديزيره سَقّال

رؤيا

لتاريخ أبي عبد الله

– شعر –

الدار الصحفية العربية لـلأبحاث والنشـر والتوزيع

جوزيف سقّال

رؤيا

لتاريخ أبي عبد الله

الطبعة الأولى ١٩٨٦

– شعر –

الدار الصحفية العربية للأبحاث والنشر والتوزيع

- بيان الشعر -

- ١ -

حين تنطفىء حركيّة التاريخ في مهزلة القيم،

ويصير الإنسان سلعة بسيطة في أيدي تجّار المصير،

حين يغدو الزمن سيلا يجرف معه كل شيء،

حتى الفرح، حتى الطموح، وتغرق بقية الرؤيا في الحطام،

حين يصير الدين سيفاً في أيدي المرتزقة والوثنيّين، ويختلط لغط الحشر بهملجة الموت،

حين نموت ونحن نظن أننا نحيا، ونكسر الإيمان بالكفر، ونحوّل الورود رصاصاً، والمهازلَ قيماً،

حين نفقد قلبنا في زمن لا قلب له يغيّب حتى النبض، حتى الدم، حتى العروق،

كيف نعثر على الشعر، وكيف نهتدي إلى ملكوته؟

- ٢ -

لقد مرّ العالم العربي حديثاً بتحولات هائلة، عنيفة، هزته هزاً، وانعكست على حياته الجماعية برمّتها. وأعنفُ هذه التحولات على الاطلاقِ سياسيةٌ، يمكن أن تتحدد في نشوء الكيان الاسرائيلي منذ العام 1948 وحروبِ العربِ معه من جهة، وفي فَشَل الأنظمة الثورية كلها فشلاً تاماً، في تحقيق أي تقدم يُذكر على صعيد الحياة السياسية العربية، ومواجهة العدو الذي انعكس في طرفين أساسيين: الصهيونية/ إسرائيل، والامبريالية/ الخارج - الغرب.

كانت نكسة حزيران 1967 ضربة رهيبة خلخلت حتى الفكر العربي، وأوجبت إعادة النظر

لقد مرّ العالم العربي حديثاً بتحولات هائلة، عنيفة، هزته هزاً، وانعكست على حياته الجماعية برمّتها. وأعنفُ هذه التحولات على الاطلاقِ سياسيةٌ، يمكن أن تتحدد في نشوء الكيان الاسرائيلي منذ العام 1948 وحروبِ العربِ معه من جهة، وفي فَشَل الأنظمة الثورية كلها فشلاً تاماً، في تحقيق أي تقدم يُذكر على صعيد الحياة السياسية العربية، ومواجهة العدو الذي انعكس في طرفين أساسيين: الصهيونية/ إسرائيل، والامبريالية/ الخارج - الغرب.

كانت نكسة حزيران 1967 ضربة رهيبة خلخلت حتى الفكر العربي، وأوجبت إعادة النظر

في كـل شيء: في حيـاة الإنسـان، وواقعـه، وحضـارته، ومـوقفه من الآخـر؛ في وجوده ونـوعيّة هذا الوجود؛ وفي الأنظمـة نفسها التي تُعْتَـبَر أساس المواجهة. عـلى أن هذه الأنـظمة لم يتغير فيها شيء حقيقيّ عـلى الإطلاق، وتحـوّل الفكر الثـوري فيها إلى تعبئـة متقاعسـة، ثابتـة، تحيل النضـال رضوخـاً بـاسم الثـورة، والمؤسسـةَ هيكـلاً محنّـطاً، أو نصبـاً مقدَّداً باسم التحول، وبالتالي، تفرغ فكـرَ الإنسان من كـل ما سـواها، وتنـزع عنه ذاتيّتـه وإمكـانـاتِ تحوُّله، لتملأه بذاتها، وتنفي كل عمل ضدَّها، وإن كـان تصحيحيّاً. هكـذا غدا النـظام الثوريّ نـظاماً توتاليتارياً أو ماكيافيلّيّـا، يسحق ما عـداه، ويعلن، ضِمْناً، أنه هو الغاية النهائية في حركة الحياة كلهـا: سيـاسياً، وحضـاريّاً، واقتصـاديّاً، وفكـريّاً. . . ولم

يعـد مبدأ الـديمقراطيّـة في البلاد العـربية إلا لفـظة جوفاء، أو شعاراً فارغـاً يُرفَـعُ في أوقات العُسْر، أو في الخـطب الإستهلاكيـة. وراحت الحيـاة العـربيـة تغرق، أكثر فأكثر، في لجّة المأساة، حتى صار الواقع ألماً مُضْنياً، وتـراجعاً عنيفـاً، يقضي على كـل إمكان تحوُّل في الذات؛ ولم تعد إعادة النظر في الواقـع إلا أملاً بعيدَ المنال، تنادي به أصوات هنا وهناك...

لِنُعِـدْ طَرْحَ السؤال عـلى أنفسنـا إذاً: من نحن؟ إن الهمّ الحضاري الذي حملته حركة الحداثة العربية قبـل «النكسة» تكشّف عن بَـوَار، وارتدّ يـأساً عـلى الـواقع، يقبـع في ظلّ الأنـظمة، ويهـادن التقاعس والخمول، فينكفىء الأمل. من نحن في ظـل واقعٍ كهـذا؟ ليس من العسير علينـا أن نـرى إلى أنفسنـا اليومَ جثثاً محنّطة، أتلفتها حضارة تعيش في الماضي،

وأخرى مسترفَدَة ليست من طبيعة ذاتنا. لقد انحرف النضال إلى ذاته فدمّرها، وارتدّ الفكر سلبيّةً تتزيّا بثوب من الايجابية المموَّهَة، وصار العقل عبئاً على صاحبه في هذه الخريطة الممتدة التي تدعى «الشرق الأوسط»، و«العالم العربي».

ماذا فعلنا لنستحقّ أنفسنا؟ إنَّ الرؤيا العنيفة التي تلتهم عيوننا يوماً بعد يوم ناقوس يؤذّن بالخطر. فالتراجع الدؤوب الذي نستمر عليه يُفرغ الظاهرة من ذاتها ليملأها بالعدم. نعم، نحن، شيئاً فشيئاً، أمام العَدَم والإعدام، ولا نقوم بأي عمل لدفعهما. ماذا فعلنا، إذاً، لنستحقّ أنفسنا؟ ليس إنتحار خليل حاوي إلا صرخة فريدة، عنيفة، بوجه الملهاة الطويلة التي يمثلها المحيط العربي برمته، دون أن يعيد النظر في أي شيء،

ودون أن يقـوّم، من جـديـد، أي شيء. نحن لم نستحقّ أنفسنا قط، فمتى نستحق أن نكون؟

- ٣ -

في ظـل هـذا الضيـاع الصعب، مـاذا يفعـل الشعر؟ هل يكتفي بإخراجنا من الواقـع - المأسـاة، ليلقي بنا في أحضان حلم جميـل، لا يكون، بَعْـدُ، إلا حلماً؟ هـل يـرفض الـواقـع ليخـرّبـه، ويكتفي برفضه وتخريبه؟ هل يتقنّع بايجابيـة مزعـومة ليـدعم الأنظمة التي أنهكتها السلبية؟

إن وظيفـة الشعـر أن يختـرق الـواقـع، ولكن لا ليحلم أو يُـزَيِّف، بـل ليجـاهـر ويصـرّح. ليست وَظيفته أن يلقي بالأقنعة على الأشياء أو يكذب، بل أن يـرفعها عنهـا ويعرّيهـا. وظيفتـه أن يقـول مـا لا

يُقال، وأن يكسر طوق الحصار عن الكلمة، فيحررها بكراً، مليئة بمادتها، معطاء، لا تكرارا مصطنعاً لزمن مات وانتهى، أو لمؤسسة حجّرها الموت، فاستحال عليها الإنبعاث.

لكن شعر ما بعد «النكسة» لم يفعل ذلك، بنظري، إلا نادراً. معظم ما فعل ذلك من الشعر غرق في الشكلية، وفرض على نفسه قيوداً من الشكل حوّلته إلى أحجية أو صور لا تدرّ كثيراً. أنْ نحدّد الشعر لا يعني أن نتغرّب، بل أن نغوص في عمق التراث وجذوره، فنبعثه من جموده. لذلك علينا ألا نغرق في تلك الشَّطَحات المستوردة التي لا تُثْري ثقافتنا وتراثنا كبيرَ ثراء. فالكتابة في ظل ظروف التفتّت التي ذَكَرْتُ عمل صعب للغاية، لأنها تستدعي مجهوداً خارقاً من الشفافية

والإخـلاص، والبعد عن التمـويه، والجَهْـر، كيلا تكون كاذبة ومموِّهة. ولئن كان لزاماً علينا غربلة مـا نكتبـه من التعفُّن، والجهـل الممـوَّه، والتعـصُّب القاتل، والانجـراف اللامجـدي، فإن هـذه الغربلة هي بهدف إعادة تشكيل كتابة حقيقيةٍ عـلى مستوى الشعر، تفضح الواقع، وتعيد النظر، حقيقةً، في ما أمـامنا. وليس واجبـاً عـلى الشـاعـر أن يلزم نفسـه بنمط خاص من أنماط الكتـابة، أو بنسق معـين من أنساق التعبير، لكي يكـون شاعـراً بنظر غيـره، بل أن يكتب بتجـرّد وبصدق تـامّـين مـا يـرى ويعي. فليس علينـا أن نكـون بنيـويّـين، أو شكليـين، أو كـلاسيكيين، أو مـا إلى ذلك من التمـذهب الكثـير لنكـون شعراء عصـريين، فقـد يحوّل الشـاعر الحقّ حتى النسق التقليدي للنظم إلى وعاء لشعر عـظيم،

وجديد كلَّ الجِدَّة.

القضيـة الشعريـة بعد النكسـة، ولا سيما بعـد الستينـات، هي، بنـظري، لَمُّ الشّتـات، والنفـاذ بالرؤيا إلى جوهـر القضية الشعـرية ـ وهي، حتـماً، ليست مجـرد قضية تغيـير شكل أو نمط من التعبـير، بـل قضية تغيـير الحياة نفسهـا ومفهومِ الحيـاة. إنها قضية تأسيس، وليست قضية تَمَأْسُس! لـذلك عـلى الشعـر ألا يستحيل إلى مؤسسـة، لأنه أصبـح ـ ولا سيما في بيروت ـ أشبه بدكاكين البقّالين، كلٌّ يدعـو إلى بضاعته ويحاول أن يروّجهـا، وتحوّل نَقْـدُ الشعر إلى رياء، تُمْسِكُ به زُمَرٌ إعلامية من منابرها، فتدعو إلى آرائهـا، وتذم مـا عداهـا، دون أن تنقده نقـداً سويّاً، عـاقلاً، ومـوضوعيّـاً، وهذا أسـوأ من تعتيم الفكر، لأنه قضـاء مدروس عـلى الفكر نفسـه! وما

أكثر ما نقرأ المقالات التي يُدْرِجُها مروّجوها في إطار النقد على صفحات المجلات والصحف في بيروت أو غيرها، وهي تخلو خلوّاً تاماً من الجدية والموضوعية، فَتُحْشَر فيها تعابيرُ واصطلاحات حديثة، بنيويةٌ أو فلسفيةٌ، لا تتلاقى، أو لا يحتمل النص شيئاً منها. وما أكثر ما نجد مدحاً لدواوين أو شعراء لا يستحقّون منا حتى الاشفاق، في مقالات مطوّلة أحياناً، ومختصرةٍ أخرى، سطّرتها أقلام ضِعاف النفسية من «حاملي المباخر»، والمأجورين، والمرتهنين، ومدّعي العلم والفكر...

– ٤ –

الشعر فِعْلُ كتابة، ولكنه فِعْلُ فكر وخلق ومعاناة واختراق وكشف أيضاً. وهو، وإن خرَّب السائد كثيراً، عليه أن يشفّ عن موقف واعٍ

وناضج من الوجود، كيلا يستحيل فوضىً وهدماً دونما طائل. وفي فِعْلِ الكتابة تجد الذات طريقاً للتعبير عن كشفها. فليس التجريد وحده وسيلة التعبير الفضلى، ولا البعد عنه وتَجَنُّبه أيضاً. في الواقع، ما من طريقة مثلى للتعبير تصلح دون سواها، وما من شكل يصلح دون غيره ليستوعب المادة. إن السؤال الذي طرحه بعضهم: «كيف أكتب؟» ينبغي، بنظري، أن يكون: «لماذا أكتب؟» عندئذ يمكن أن يلقى جواباً في غمرة الضياع الذي تعيش فيه هذه المرحلة؟ إنَّ المادة والشكل كُلٌّ لا يتجزأ، والفكرة هي التي تحمل معها شكلها في إطار الكشف الذي تعبّر عنه. وكل شكل صالح للكتابة في كل زمان ومكان ما لم يفرض على الفكرة تحويراً لحسابه.

ولكن، أليس صحيحاً أنَّ نماذج الأنظمة هي التي فرضت على الشعر نماذجه الثابتة؟ أليست دكاكين الشعر التي نعرفها وزُمَرُ مُدَّعي النقد أشبه بالأنظمة المغلقة ومؤسَّساتِها المُنْحَازة؟ أليست هذه الدكاكين والزُمَر تلغي مبدأ الحرية باسم الحرية، وتكفّر من يعارضها، أو تحاول دائبة أن تنحّيه جانباً، حتى في لبنان الذي كان المعقل الوحيد والأخير للديمقراطية في العالم العربي؟

على الشعر أن يتجرّد ويعلو على كل هذا. علينا الآن أن نعيد بناء ثقافتنا دونما إنحياز أو إنجراف؛ أنْ نقوّم كلَّ شيء، ونستخرجَ من بحر الرماد المديد لَمَعَ الآتي وإمكانيَّات الانبعاث...

– ديزيره سَقّال –

– ١٩٨٥ –

- ٢ -

نَتْنٌ على جرحِكَ،
والتاريخُ في عينيكَ نَتْنُ؛
فعلامَ تزهو،
أم تُراكَ الآن نَحْنُ؟

محاولة للدخول إلى تاريخ
- أبي عبد الله -

- ١ -

مِنْ أَيْنَ نَأْتِي والدروبُ إليـكَ تُخْفيها متـاهاتُ الـدروبِ؟ : بَقِيَّـةٌ جَفَّتْ، طـريقٌ بـائـدٌ، قَـدَرٌ تَقَمَّصَ عَـظْمَكَ المكسـورَ. . . من أينَ ابتـداؤُكَ وانتهاؤُكَ؟ حين تَحْتَـرِفُ انسحابَـكَ نَرْتَقيكَ ولا نرى،

وندوس وجهَكَ، لا نرى،

ونثير مَكْسَرَكَ الطويل ولا نرى. . . -

من أين نأتي

والدروب إليكَ تُخفيها متاهاتُ الدخولْ؟

- ٢ -

نَتْنٌ على جرحِكَ،
والتاريخُ في عينيكَ نَتْنُ؛
فعلامَ تزهو،
أم تُراكَ الآن نَحْنُ؟

- ٣ -

تَنْسى، فـلا كَمَنَتْ فتـوحُ في رمـالِـكَ - كيف
تَنْسَى؟ - ذاكُمُ التاريخُ : مرحلةٌ، محاولةٌ . . .
تُقَسِّمُ وَجْهَكَ المأجورَ،
تخترع النقيضَ،
وها هو التاريخ يُكْسَرُ كالهواءِ
فكيف نأتي؟

- ٣ -

تَنْسى، فـلا كَمَنَتْ فتـوحُ في رمـالِـكَ - كيف

تَنْسَى؟ - ذاكُمُ التاريخُ : مرحلةٌ، محاولةٌ . . .

تُقَسِّمُ وَجْهَكَ المأجورَ،

تخترع النقيضَ،

وها هو التاريخ يُكْسَرُ كالهواءِ

فكيف نأتي؟

- ٤ -

نَتْنٌ على جرحكَ،
والتاريخ في عينيكَ نَتْنُ؛
فعلامَ تزهو،
أَمْ تُراكَ الآن نَحْنُ؟

مداخل إلى تاريخ
- أبي عبد الله -

مدخل أول

حين تنكسر الأرضُ كرمحٍ
تكسر وجهك وتنغلق -
جُثَّةً كوكبيَّةً،
أرضاً أقفلت أبوابَها . . .

حين تنكسرُ الأرض كرمحٍ
لا يبقى سوى تاريخ الخروج
وما أنغلقَ
من كتابٍ للهجرةِ،
وما هاجرَ
من غيم الرحيل الأبديّ . . .

مدخل ثانٍ

في البدايةِ
كان الأفق شجرةً والحكايةُ باباً،
ثم
لم يعد ثمة بدايةٌ،
وانقفلنا.

مدخل ثالث

تعرف أَنْ ترحلَ في الزوايا الغريبةِ،
تملأ جبينكَ بالحصى؛
تعرف أن تنام في الدهشة القاسية
تحت مطر الصمت. . .

هكذا
تَتَساقط وَتَنْسى،
وتمحوكَ دمعةٌ أخيرةٌ. . .

مدخل رابع

هادئ كما يهدأ الصدى. . .

كـان الأرجُ بحيرةً والـرملُ مـداراً (أَعَطِشْتَ؟).

ثمـةَ تُطِلُّ من ثُقْبِـكَ، تشربُ قَهْـوَتَكَ المُـرَّةَ عند الصباح، وتقرأ الصحف. ثمةَ تُطِلُّ من ثُقْبِـكَ، تنسـدلُ على الأحـاديث الصباحيـةِ ـ كـان الأَرَجُ بحيرةً (أشَرِبْتَ؟).

هادىءٌ كما يهدأ الصدى،
وعيناك رِتاجٌ مُقْفَلٌ
على حصارِ المدينة. . .

مدخل خامس

«لأبـوابكِ، أيتهـا المدينـةُ، آنخِلاعٌ سَـرْمَـدِيٌّ،
فـابتعدي أيتهـا الرؤيـا القاسيـة، ابتعـدي . . .
لِذَهَبِكِ فضاءٌ لن ينطفىء أبَداً . . . ولي
هذا المدى كُلُّهُ،
وهذا الحلمُ
الطويـ . . . يـ . . . ل . . .»

ـ ههنا يَتّجِرُ البحر
إلى الفوضى الكونيّة.

مدخل سادس

عندما رَحَلَتِ الشمس
وآنْقَفَلَتْ
تَـرَكَتْ خَلْفَهَا
بعضَ دموعٍ
وأرضاً للرؤيا.

عندما رَحَلَتِ الشمس
أيقظتَ حريقَكَ
والخروجَ . . .

- 1 ـ الخروج -

- ١ -

تهبُّ دماؤهم بين المدى والأُفْقِ - لم يصلوا إلى الشمس التي ضاعت وراء النفي، لم يصلوا.

هناك الزحف يخرج من غبار النَّهْبِ عبر سمائهم. مَنْ قال إنَّ الفتحَ ليس مُضرَّجاً بعويله، والناس لم يصلوا إلى تُخْمٍ أخيرٍ، بعده تركوا الرمالَ على ضباب الجسم (إنكَ في الداخل فَوْرةٌ ماتت، وشَيْبُ راسِخُ الثلجِ).

ارتمى صَوْبَ الخُطى والنَّفْيِ حُلْمُكَ، أَطْبَقَتْ عينُ السماء على عويلِكَ، أوغلت كفّاكَ غارقتينِ في أفق الرمادْ.

كانت خطاكَ تئنّ، يرصدها هديرُ الموج - وحدكَ تائه، ويداك تلتقطان حزنكَ في السهادْ:

صوت يصيح بكلّ هذا البحر: كان هنا.

يرتجّ ملءَ الشمسِ: كان هنا.

يمتدّ... يعول في الدروب... هنا.. هنا..

لكنه رحلت خطاه مع الدماءِ تغور في مرج

الدماءْ،

رحلت خطاه من السماءْ -

صوت يصيح بكل هذا البحر: كان هنا!

- ٢ -

وجه يراوح في القناع ويفتح الحلمَ المهاجرَ

كان في أجراسه طفلاً تَكَوَّمُ حولَهُ لغةُ السديمِ.

هناك لوّح بالهبوب، وسرَّحت أحلامُهُ جرح

السيوفِ على مَهَبِّ دَمٍ.

هناك غادرَ، والحريقُ مراكبُ، والحلم أشرع

من الهلعِ الطويل. هناك غادرَ. . .

كان في كفَّيْه سَيْفٌ

يحصُد الأصداءَ،

يُطْبِقُ بالهَبَاءِ على الهَبَاءْ،

وصراخُهُ أشجارُ صمتٍ

مات فوق غصونها ثَمَرُ النداءْ.

– ٣ –

بيني وبينَ دمائهمْ

وادٍ من الجوع المسافِرْ.

بيني وبينَ دمائهمْ

هجيرٌ. . .

يَهُبُّ الخَسْفُ من قاعِ

الغروبِ، تَهُبُّ أوجُهُكُمْ مضرَّجَةً بأعصارِ

آليَبَابِ، تَزِفُّ أَعْيُنُكُمْ يَبَابَ الفجرِ
للتاريخ : هذا بدْؤُكُمْ - هذا آنتهاءُ العَصْرِ!!
مَنْ يرمي رماداً فوقَ
أَطْباقِ الرَّمادِ؟ هنا مَرَرْنا (هل مَرَرْنا؟)
تَحْتَ إجْهاضٍ بحجم الليلِ ، أَقْفَلْنا المشيمَةَ
وآنْقَفَلْنَا -
بيني وبين دمائهمْ صُوَرٌ
تُمَحيّها وترسُمُها المساخِرْ،
بيني وبين دمائهمْ
وادٍ من الجوعِ المُسافِرْ
وضَمائِرٌ مُسِخَتْ ضمائِرْ،
بيني وبين دمائِهِمْ
فَلَكٌ . . .

لَيَبْرَحُ عنكُم الدمُ.

في الصباح تهاجرُ الأشياءُ... لا يبقى

سوى طَعْمِ المساءِ المُرِّ والصمت الطويلْ...

- ٤ -

بيني وبين دموعها كهفٌ ضَبَابيٌّ

تُحاصِرُهُ الخروجُ - سلالِمُ الجوعِ اشرأبَّتْ في

صراخ الموجِ. عاد البحر مَسْكُوناً بأغلالِ التنهُّدِ

بين وجهٍ حفرتْهُ مرارةُ الذكرى

وبين الدمعِ في صَلَواتِ أمي...

يتسرَّبُ الحسُّ الرهيبُ من النجومِ...

دموعُهُمْ ودموعُها... آآآآهٍ، بقيَّةُ ما

تبقَّى...

يتسرَّبُ الحسّ الرهيب من الصدى:

صَوْتٌ سَحيقٌ طافرٌ من هَدْأة الأشياءِ:

كان هنا.

يَهْتَزُّ مِلْءَ الشمسِ: كان هنا:

يمتدُّ، يعول في الدروب: هنا... هنا...

لكنه رَحَلَتْ خطاه مع الدماء تغور في مَرْج

الدماءْ،

رَحَلَتْ خطاه من السماءْ،

صَوْتٌ يصيحُ بكلّ هذا البحر: كانَ هنا!

- ٥ -

لا تعلكُ الأعضاءُ غيرَ لحومِها.

لا يَمْضَغُ الأعضاءَ غَيْرُ مسافةِ

آلدمِ. كانت الذكرى رمالاً عَبْرَ عاصفةِ

الرمالِ؛ وكُنْتَ أعْضائي.

تدورُ على الضياعِ ، وحولكَ الشكلُ آنتحارٌ.
أيُّ هَجْرٍ وَجْهُكَ الممدودُ؟ كانَ دمي يَبَاساً.
كُنْتُ أخْتَرِقُ المكانَ
وللمكانِ مَتَاهَةُ الأشياءِ،
للأصواتِ لونُ الماءِ، ذاكرةُ النباتِ،
هناكَ يَبْتَلِعُ الصدى كلَّ الرحيلْ.
للأرض في عينيكَ أَشْبَاحٌ
وأصداءٌ من الزَفَراتِ،
البواقُ من الصمتِ الطويلْ...

- ٦ -

مَنْ قالَ: أَنْهَضُ بَيْنَكُمْ؟ من قال: أَخْتَرِعُ
انعطافاتِ العصورِ؟ هنا يَهُبُّ العُقْمُ، يَجْلُدني

فأمضَغُ من لحومِ الصَّبْرِ أَشْلاءً مُقَدَّدَة وأَحْتَرِفُ
آنحداري
فَلْيَكُنْ شَرْخٌ بِشَرْخٍ !. . .
يَفْغُرُ التاريخُ قَبْراً :
ضَمَّ تاريخي وناري. . .
فَلْيَكُنْ شَرْخٌ بِشَرْخٍ ! أَثْلَجَ النارَ
آلرمادُ؛ تَقَلَّصَتْ دربي على قَدَمَيَّ؛ قادتني
الدموعُ؛ كَسَرْتُني.
وَحِصَارُنا يَهْوِي
وتهوي في دمي الصحراءُ باردةً. . .
كان الفراغُ يَلُمُّ أشلاءَ الضياع على الضياعْ
والسيفُ مكسوراً يهاجرُ في النزاعْ

٢ ـ رقع من تاريخ
- أبي عبد الله -

- ١ -/ ١٩٤٨

يخرجُ ذاتَ مساءٍ.

تطفو عيناه على لُجَجِ الوطنِ المسلوبْ

- ٢ -

كفّاه جراحٌ،

وبحارُ الشوكِ كوابيسٌ تبتلعُ الأرضَ.

تفتّحَ زَحْفٌ

ظلّتْ ذاكــرةٌ تَــرْشَــحُ من ضَرَبــاتِ السيفِ

المغلوبْ.

- ٣ -

رسموا وجهَ الماضي.

يقتحمُ الليلُ عيونَ الشمسِ. أُساوِمُ.

يَنْشَقُّ البحرُ وَيَطْلعُ شَعْبٌ من تاريخ الموتِ

إلى أنقاضِ الأرضِ . لهم ذاكرةُ الدم حين

يصيرُ ضباباً .

وهناكَ هناكَ آنْحَسَرَ التاريخُ عن الموتى -

هَبَّ الليلُ ،

آنكَسَرَ السيفُ ،

تراءى طَعْمُ رمادٍ يُشْعِلُ ليلَ الموتى .

سَقَطَ العَرَبيُّ ،

وسالَ صهيلُ الفجرِ على النَصْلِ المكسورْ .

- ٤ -

ما أَصْلَبَ هذا الليلْ !

ما أغبى هذا الزمنَ المَقْدورْ !

- ٥ -

كان «تأبط شرّاً»، حين يُجَنّ الليلُ،

يحاربُ «غـولاً»، يَنْـظُمُ شِعْـراً عن حـرب

الأشباح.

لكنه كان وحيداً:

وحيداً يَقْطُرُ فيه الزمنُ المَيْتُ!

- ٦ -

لا يبقى أحَدٌ...

وحدي!

لا يبقى أحدٌ...

كَتَبتُ وجهُ الماضي.

كَتَبتُ هذا الليلُ.

على العينينِ ضبابٌ . . .
يَعْبُرُ شَعْبٌ نحو الموت هنا وهناكْ .
عَطَشٌ مِلْءَ عروق الأرضِ هنا وهناكْ .
سيف الظِّلِّ يُهاجرُ في جَبَهاتِ
آلدمعِ ـ تصيرُ الأرضُ الحُبْلى إجهاضاً تحتَ
قميصِ الرملِ .
هنا وهناكْ
أرحامٌ تغرق في الإجهاضِ
وتاريخُ مزّقهُ الإنهاكْ . . .

ـ ٧ ـ

إيـ . . . يـ . . . ـهٍ!
لا يبقى في الصلصالِ

سوى زمنِ الإجهاضْ.

- ٨ -

قلبٌ حاصرَهُ دِرْعُ الليلْ
هذا الوطنُ الميّتُ على حَشْرَجَةِ الانقاضْ!

- ٩ -

أشيلُ فوق جمادي عاصفةَ الظلِّ، ولا ألمح
إلا الأرضَ. حَسَرَاتُ الفجــر بقلبي، والشعبُ
الغامضُ جُرْحٌ،
والأرضُ فُسوخٌ ورمادْ.
جسدي أرضٌ بارِدَةٌ
تمتدُّ في الخَسْفِ جَمادْ...

- ١٠ -

يخرجُ عبدُ اللهْ ـ

«لا غالبَ إلا اللهْ»!

- ١١ -/ ١٩٦٧

يُهاجرُ الخروجُ في عروقنا.

يتلو الصدى ملامحَ الخروجِ :-

كانت السماءُ زهرةً

تموتُ (هل نَلُمُّ نورَهَا؟)

كانت وجوهُنا

مديَةً

وَصَوْتُنا نُباحَ كلبٍ! تَهْتُفُ الآفاقُ للهباءْ

والعارُ يمسح الظلالَ

والشمعةُ ترتمي على الدماءْ.

- ١٢ -

يهاجرُ الفراغُ في عروقنا . .

من قال إنَّ الصمتَ لا يُزَوْبِعُ السماءْ؟

- ١٣ -

صلاةُ هذا الفجر تثقبُ المـدى. وللسيـوفِ

طعنةٌ كسيرةٌ تنام في الجراحِ . كان الصمتُ آخرَ

المدى.

والأرضُ جرحاً،

والأفقُ غائمَ الصدى.

- ١٤ -

مدينتنا مجامرٌ يطفئها الخرابْ.

- ١٥ -

نأوي إلى الدموعِ

واليبابُ يمضغُ اليَبَابْ.

- ١٦ -

في كلّ خطوةٍ نباركُ الصدى.

تستيقظُ الدماءُ في جُدُورِنا يتيمةً

تحجّرت في شهوة الردى -

في كل خطوةٍ نباركُ الصدى.

- ١٧ -

إهْتَرَأَتْ أشلاؤُنا

تَلَطَّخَتْ بلعنةِ الترابْ.

- ١٨ -

نأوي إلى الدموعِ

والبياتُ يمضغُ البياب.

- ١٩ -

يتحجرُ النهارُ في الهَبَاءِ، يَشْرُبُ السماءَ. كنتِ
في عروقنا مرارةَ آغتصابنا الطويـلِ، تَثْقُبينَ آهـةَ
الحجارِ. كنتِ لعنةَ الخـروجِ تَصْـدَعُ آلأرضَ،
تموتُ في بكارةِ التوراة. يَصْـدَأُ المسـاءُ، يُقْفِـلُ
النحـاسُ قلبَنـا. وَظِلُّكِ آنكسـارٌ في خـرائبِ
المدى...

دمٌ... دمٌ... دمٌ...

شيحةُ الغُفرانِ يعوي دونَها الغفرانُ والدخولُ
مغلقٌ. من يطمس التاريخَ في فؤاده المريضِ؟
من يَمْنَعُ الخصيانَ بانتفاضـةِ المحاربـينَ؟.. لا

جهــاتِ تَرْفَـع الأتون عن قلوبنـا. . . لا
دربَ. . . لا ردى. . .
دمٌ . . . دمٌ . . . دمٌ. . .
ذبيحةُ الغفرانِ في قلوبنا دمٌ. . .
والرَّمْلُ عَبْرَ آثار الخطى دمٌ. . .
واللهُ، والأرضُ التي تغيبُ عن عيوننا
دمٌ . . . دمٌ . . . دمٌ . . .

- ٢٠ -/ ١٩٧٥

من قال إنَّ الأثيرَ لا يهوي في الجلْدِ كالدماءِ
والنَّهْبَ لا يَصِلُ إلى الحافة الباردة، والسقـوطَ لا
يستيقظ. . . ؟ من قال إن الهجر ليس يـرحل في
أَسَنِ الساهرين. . . ؟ سيذكر هذا الباب الكسير

كيف أنّ النباتَ هاجر في الذاكرة، وترك في سرير الطين بقيَّةَ حنينٍ. سيذكر هؤلاء العابرونَ جسدي تغطيه حدآت الفضاء (مُخَلَّعٌ مُخَلَّع هو الفضاء)، وتهاجر فيه صواعق الثَمر إلى أعماق الجلد. وعَبْرَ أدغالِ الطحالبِ يفتح القلبُ الخروجَ في كمين طويل. . . هنا تستسلم الخطى للدهشة القبح، ولا يبقى سوى رنين الزمن المكسور.

لَبَّيْكَ، أيها الحطام!
غارقاً في هدير الجموع،
داخلاً وجه الزمن المحطم.
لَبَّيْكَ أيها الحطام!

كنا ننزلُ في أتونِ الدم، حاملينَ ألوانَ
آلليلِ، وتَعْبرنا ضراوةُ الحصار؛ كُنا صائحين:
فَلْيَكُن الليل!

وداعاً، أيها الجَسَد!

خارجاً من الجراح، من هذا الباب
النحاسيّ، أتمدَّد على غابات الفطر، منحدراً بين
الدمعة والدمعة،

وداعاً، أيها الجَسد!

خارجاً من الجراح، من هذا الباب
النحاسيّ، أتمددُ على غاباتِ الفطر، منحدراً بين
الدمعةِ والدمعةِ،

وداعاً، أيها الجسد!

وحدكَ مَسْكوناً بحرب الفـراغ. وحـدكَ
تستيقظ على الرحيل. سنرميك بالهباء، نَلْجُمُكَ
بالأباطيل، تَوَزَّعُ فيك المرايـا. وحدكَ مسكـوناً
بحرب الفراغ، آمتداد للأرض، مسـافةُ تنهـار -
كل حصاة سيف مغلول بالصَدَأ، كلُّ غيمةٍ تَقْرأُ
الفجيعة. أنت الشريكُ، أيهـا الجسدُ، في قـارَّة
الدم المُحتشِّ، تبـاركُ الخرابَ بالخراب، تـزرع
حصـارك في هجرة الـزهر... حُلْمُـكَ المجاعـةُ
الآتية.

حُلْمُكَ
هذا
الوطنُ

المباح!

لَبَّيْكَ، أيها الحطام!

- ٢١ -

من آخر الشَّرْقِ تَعْبُرُ القافِلَة. في آخر الشرق تموت القافِلَة. وها بيروتُ في أَلَقِ الطعنةِ، حيث تُهْرَقُ دماءُ الذبيحةِ دون أن يكون الغفرانُ. ألعُشْبُ مدارج تَنْثُرُ الذاكرةَ القتيلَ على العشب المسحوق. الشمس نَهْدُ من الرصاص، والأرض حفنة إجهاضٍ تثقب الحضور.

وداعاً، أيها الجسد!

سَأَرْحَلُ في بكاءِ الأتون، حاملاً بقايا القمر، مُحْتَفِلاً بالليل، أهوي بين الرؤيا

والرؤيا . . . سأرحلُ . . . سَأرحل . . .

وداعاً ، أيها الجَسَد !

- ٢٢ -

مَنْ قـالَ إنَّ الحُـطَامَ لا يَنْبُتُ في العـروق؟ يـحقّقُ الحلمُ عـلى كابـوس بحجم الليـل . مَنْ قـال إنَّ انـسـلاخَ الكـائن في صراع الجـوهـر لا يـرسم رتـاجَ الفجيعـةِ؟ من قـال . . . من قال . . . ؟

غيرَ أني ، وسط الحـطام ، أستعيـد الألـوان ، ألوّن الموت بالأقنعـة ، أضيع في خُـطى بيروتَ ، سائراً نحو العرس المأتميّ . . .

أنا المصير!

أُبَعْـثِرُ صُلْحَ الكائن في آبْتِكـارِ الهَـدْم، لكنني
أتـركُ الخَـوَاء. أَنْقُضُ صُلْحَ الـتراب والحصى،
أُهاجِرُ خَلْفَ أُقْنوم النَدَم المحال -
أنا المصيرُ!
أنا المصير!
باطلٌ هذا النَبْضُ في عروق الجَسَد -
المدى عُرْسٌ بليد،
والرؤى شموسٌ تحترق.

- ٢٣ -

مـربوطـاً بخيطٍ يشدّه وصـول الموت ورحيـل
الحياة،
إمْضَغُ الرَّمْلَ - أَسْقُطُ

بين

الحَبَّة

والحَبَّة

لا يبقى على شَفير النَّهْب

سوى أجسادِ الجسور المهشَّمَة.

لن يصلوا! كان الزحفُ طويلاً! كانتِ آلعرُوقُ كابوساً من الريح السَّمُوم. غيرَ أنَّ هذا القلبَ لا يَفْتَحُ العذابَ

إلاَّ لي!

- ٢٤ -

صحارى الأشلاء

بقيَّة من الزمن المكسور.

- ٢٥ -

فـاتني أَنْ أَقْـرَعَ بـابَ الصبـاح، أَنْ أَشُـدَّ الشمسَ بِخَيْـلِ الحقيقةِ. فـاتني أَنْ أصعـدَ دَرَجَ الـرَّغبة إلى طَـرَفِ العالم، أن أُمَهِّـدَ للنسيـانِ في «فتحٍ» جديد -

فاتني.. فاتني..

أنا المصير!

- ٢٦ -

أيها الحُضُورُ البارد في جِلْدِ البَلْدَةِ الحَرْباء، كُنْ لنا صلاةً تُعَلِّمُنـا أَنَّ الأطفالَ يَخْلُقـون الزهـوَ عـلى أشكـالِهِمْ. كُنِ اليـأسَ مـن الصبـاحِ الصَّلْصَـاليّ. فَتِّقْ بَراعِمَ الأَشْكـالِ، وآرحَلْ في أهراءِ البروق.

لكنني،

إِذْ أَجْمَعُ السَّديمَ بَينَ رمادِ المحرَقة، أَعرفُ أنني كُنْتُ غريماً فاشلاً للكائنِ في إنطفاءِ الجَسَد، أَعْرفُ أَنَّ تلكَ الصباحاتِ المُسْدَلَةِ تُخْرِجُ الأشكالَ من أَدْوارِ الجوع. وكم قَبَعْنا نَسْكُنُ الخنجرَ، نَسْتوطنُ ٱلنَهْبَ والخروج.
أيتها النّبوءَةُ الزائفة،
يا بوّابَةَ السَّهْمِ العاشق،
أشهدي أَنَّ الصَوْتَ لن يكونَ إلا أكثر إشتعالاً.

- ٢٧ -/ ١٩٨٢
(حزيران)

عاد التأرجح بين النَهْب والصدى، عاد ٱلخروج -

لمن هذه الجثث؟ وبين الزمن والزمن
مديةٌ. . .

لمن هذه الجثث؟ والخطط الفاصل بيننا
وبيننا خواء/ لمن. . . ؟

عاد التَأَرْجُحُ بينَ الوقتِ والخواء، وإسْفِنْجَةُ القلب لا تَنْعَصِر. هنا الزمن بين حدود الغيم والصاعقة ـ هنا الزمن يُكْسَرُ بين العَظْمِ والعَظْم ـ

وهنا التَأَرْجُحُ
والخط الفاصل بين الخواء وبيننا
فلمن
لمن هذه الجثث؟

- ٢٨ -

(تموز)

صفاء...

أرضٌ تَرْتَجُّ، تَتَصَـدَّعُ، تنزف مِلْحـاً. أرضٌ تَنْقَسِمُ بين الخروج والخروج/ أرضُ

هنا

حيث أَرْتَجُّ وأَشْطُبُ الزمن،

حيث الوعدُ يبقى وعداً

والأَمَلُ أملاً

نَرْتَجُّ، ننقسم.

هـذا الـرحيـلُ إلى النقيض! نجمـع الفـطر ونمضغ الطُحْلَبَ. ما زلنا أعداداً كَحَبِّ الرمـل،

كُثُراً كالنجوم. ما زلنا الحُماةَ، لكننا نام قليلاً -
نَسْتَغْرِقُ في نومنا الأبديّ
ونَحْلمُ -
صَفَاءٌ...

- ٢٩ -

(آب)

حصارٌ...
ألثُّقْبُ يجمع بين الأرض والسماء، وبروقُ
الفِلِزِّ تَصْقُلُ المنظرَ/ النارُ
يَنبوعُ العويلِ الأبديّ
والظلُّ حَظُّكُمْ!

حصار/ على المدى كُومٌ من الوقت، على

قلبكم بعضُ تاريخٍ ، وفي العيون رحيل . . .

هل رأيتم؟

أَلثُّقْبُ يجمعُ بين الصاعقة والشمس ، وأنتم تركعون. ألثقب يجمع بين الطَّعْنةِ والدم ، وأنتم تركعون. الثُّقْبُ يجمع بينكم وبينكم ، وأنتم لا تجمعون . . .

وأنتم ، آهِ ، أنتم
لِيَبْقَ الظِّلُّ حَظَّكُمْ
وَلأَبْقَ
واحداً واحداً ، أَنْزَلِقُ من عُلُوِّ النور ،
أرحل . أسكن في جثث زمنكم ،
وَلأَبْقَ

لُجَّةً على غُبار الأشياء.

(هنا

تَرْكَعُ بيروتُ على ضلوعي،
تَنْقَفِلُ في قُدَّاسِ الحديد.)

- ٣٠ -

(أيلول)

لَوْنُكُمْ هذا السرابُ العتيق.
لَوْنُكُمْ وَجَعُ الدهر السَّرْمَدِيّ!

- ٣١ -

(أيلول)

عاد التَّأَرْجُحُ - لِيَكُنِ الخروج!
جُثَثُكُمْ تزحف تحت فرار المحاربين، تَفُرّ معهم -

جُثثُكُمْ شاهد الزمن المكسور ـ عاد التأرجُحُ
من أين أَبْدَأُ الصدى؟

ترحلون/

لونكم هذا السَّرَابُ العتيق،
وَجْهُكُم السَّرَابُ يرحلُ إِذْ ترحلونَ
في خروجكم والزَّمَنَ،
تنحدورن،
تولدون، تنكسرون،
تتوالدون أشباحاً،
تنبعون من مجارير النفط،
من فراغ الصحراء،
ثم... لا تكونون..!

مِنْ أين أَبْدأُ الصدى؟

آهٍ! هذا التأرجُحُ القاسي،

هذا الفرارُ الطويلُ في الشهرِ الأسود!

- ٣٢ -

(تاريخ)

كيف أَفْتَحُ الزمن؟

كيف أُصَدِّقُكَ، أيها المهرّج الحزين؟

- ٣٣ -

(تاريخ)

بيروت. . . حَجَرُ الغُرْبَة. . .

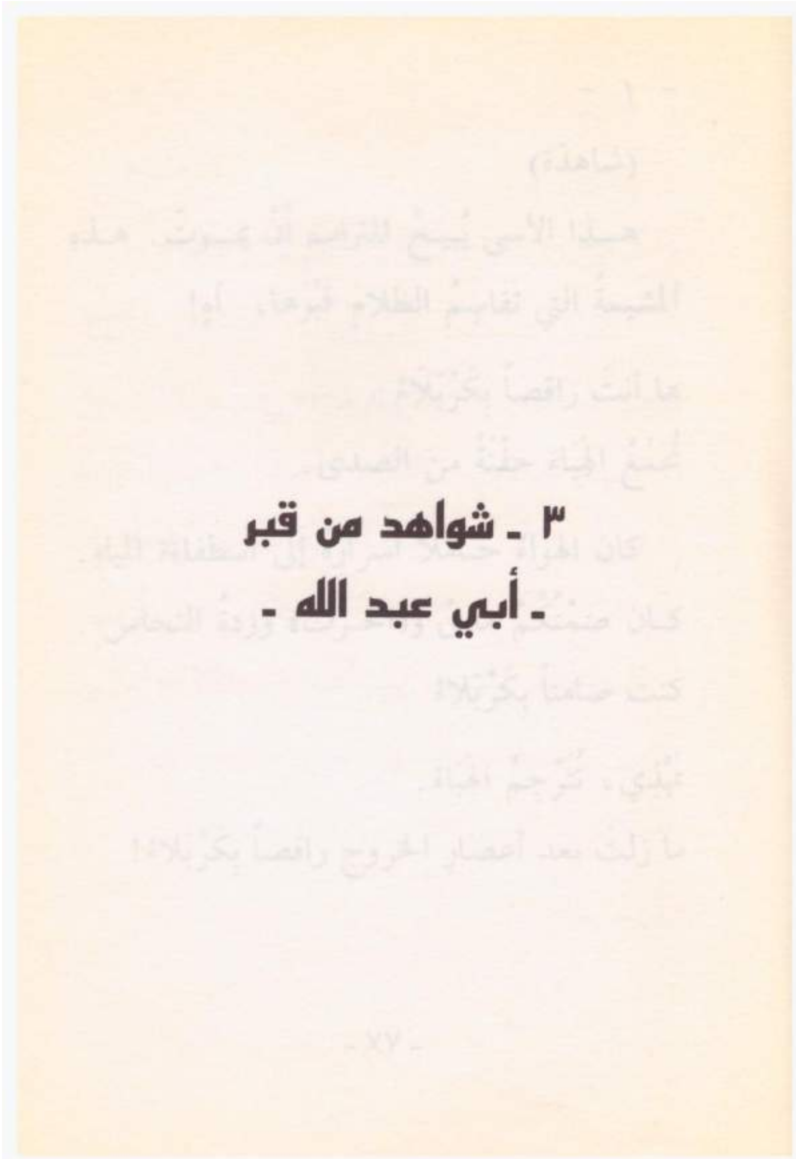
بيروتَ. . . تَصَدُّعُ تحت سماءِ الحديد!

- ٣٤ -

(تاريخ)

بيروتُ، آه!

آخرُ هذا الخروجِ القاسي...



٣ ـ شواهد من قبر
ـ أبي عبد الله ـ

- ١ -

(شاهِدَة)

هـذا الأسى يُبيحُ للتراب أنْ يمـوتَ. هـذهِ آلمشيمةُ التي تقاسِمُ الظلامَ قَبْرَها، آهٍ!

ها أنتَ راقصاً بِكَرْبَلاءْ

تُجَمِّعُ الهَبَاءَ حفْنَةً من الصدى.

كان الهواءُ حـاملاً أسرارَهُ إلى انـطفاءَةِ المياهِ.

كـان صَمْتُكُمْ مدىً و«الحـربُ» وردةُ النحاسِ.

كنتَ صامتاً بِكَرْبلاءْ

تَهْذِي، تُتَرْجِمُ الهَبَاءْ.

ما زلتَ بعد أعصارِ الخروج راقصاً بِكَرْبَلاءْ!

- ٢ -

(شاهِدَة)

بُهْلُولٌ يَـدْخُلُ جُـرْحَ الأَعْضاءِ. بـريقُ الأنثى يَسْطَعُ في عَيْنَيْهِ.

تصيرُ الحاضرَ في مَأْدَبِةِ النَزْفِ.

رُوَيْداً. . .

من أَجْلِ بَهَائِكَ هذا اليَأْسْ.

بُهْلُولُ الزَمَنِ المكسورْ

يَرْكَعُ في أَنْقَاضِ الشَّمْسْ. . .

- ٣ -

(شاهِدَة)

خَلْفَ الضباب مصائِرٌ يَحْتَلُّها وَجَعُ الذُّهولْ.

خَلْفَ الضباب خُرُوجُهُمْ. دَمُهُمْ يُناديني،

ودون سمائِهِمْ مُدُنٌ تزولْ.

دَمُهُمْ يناديني - أقولُ: «آهْدَأْ، فَبَيْنَ رئاتِهِمْ

زَمَنٌ، وذاك الإرْثُ يَرْبُضُ فوقَ أعمدةِ

الخرائبِ» -

ضاعتِ الأشياءُ بين صواعقِ الأَنْقاضِ.

أيَّتُها الطُّيُوفُ، خُذي يدي فَأَغيبَ في الحُلُم

السحيقِ، خذيني -

دمُهُمْ يناديني:

«كانَ هُنا . . . »

يَقْظانَ أُطْبِقُ بالهَبَاءِ على الهَبَاءِ
يَقْظَانَ يَمْخُرُني الصدى
أشجارَ صَمْتٍ ماتَ فَوْقَ غُصُونِها ثَمَرُ النداءْ ـ
صَوْتٌ بعيدٌ طافِرٌ من هَدْأَةِ الأشياءِ : «كان هنا» .
يَرْتَجُّ مِلْءَ الشمس : «كان هُنا»
يمتـدُّ . . . يُعْـوِلُ في الـدروبِ . . «هنـا . . .
هنا . . . »
لكنه رَحَلَتْ خُطاهُ مـع الدمـاء تغـورُ في مَرْجِ
الدِّماءْ
رَحَلَتْ خُطاه من السماءْ
صَوْتٌ يَصيحُ بكلِّ هذا القَفْرِ : «كان هنا . . . »!

تحقيق الطباعة والتنفيذ
جوزفكو ٣٨٠٤٨٠